لقاء بعد منتصف الليل

تُطوى صحائف الأيام.. وينجلي ما كانت تخبئ.. وإذا كان الماضي شيئًا راح.. إلا أنه يؤثر في الحاضر والمستقبل المجهول.. لقاء ولقاء.. ولقاءات كثيرة.. الحب تم.. والخاتمة زواج.. تزوجتْ بغيره.. وتزوج بغيرها.. ذلك ما كانت تخبئه الأيام.. وبعد الخاتمة تبدأ الحكاية.. ولنبدأ من آخرها.. حين دفنت إحدى حلقات الماضي.. عندما ارتمى جسده بالقرب منها.

أمام سور الحديقة كانا قد وقفا:

- في الحديقة أمان.. حيث لا يوجد إنسان.. وحيث الأشجار نتوارى بين جذوعها.. وتسترنا رؤوسها عن عيون السماء.

هكذا همس لها..

ابتعدتْ قليلًا عن أنفاسه اللاهثة، بينما نظرتْ إليه مرتابة.. لم يمهلها.. قفز السور وقفزت من خلفه.. بعد لحظات، كانا بين أشجار متشابكة الأغصان.. وحيث الظلام.. لمعت عيناه.. خرج صوته مبحوحًا:

- لتقتربي مني.. ولتنامي على صدري.. ونجدد الماضي.. ونعاود الذكريات.. و..

قطع الهمسَ صوتٌ أجشُّ:

- مَن هناك؟

برقت عيناه واتسعت.. فتش عن لعابه.. همس في حنق وحسرة:

- كان عند المقابر أمان.. حيث لا يوجد إنسان..

الأحداث تتأرجح في جنبات خيالها.. منذ دقائق أو ساعات.. توقفتْ حين وقف أمام أشباح أبنية صغيرة متزاحمة.. مترامية الأطراف.

- لنجلس هنا.. بجوار هذه المقبرة.

- مقبرة؟! .. أنحن عند المقابر؟!

كاد قلبها أن ينخلع.. غشيها الفزع.. اختلستْ نظرة ناحية الأشباح الصغيرة بينما تنتفض.. هنا رفات والدها.. كأنما تراه يقوم من رقدته.. ويخرج من مقبرته والتراب يتساقط منه.. وما يلبث أن يندفع نحوها هائجًا.. يشير إليها.. ومن خلفه هياكل الموتى يتطاير الشرر من محاجرهم ومن بين أسنانهم .. تقلصت عضلات وجهها.. ندّت منها صرخة شقت السكون.. وابتعدت تتعثر.. تتخبط في أمواج الظلام.. على شفتيه بهتت الابتسامة.. هرول خلفها.. أمسك ساعدها فتحركت كوامنه.. استشعرت بعضًا من السكينة.. قال بصوت متهدج:

- لِمَ.. لِمَ صرختِ؟!

لم يعد الخفير يكرر نداءه الخشن.. لعله تأكد من خداع مسمعه.. وأيضًا، لعله يدبر أمره.. أو .. أو يكون قد غرق في سباته.. امتدت يده تتحسس شعرها.. انزلقت على جيدها.. يد غريبة!.. وإحساس غريب!.. اقتحمت صورة زوجها المكان.. التقى الماضي والحاضر.. التحما.. أربع أعين ترى.. بل عينان.. لا.. بل أربع!

دقت الساعة الواحدة بعد منتصف الليل.. ليل الشتاء القارس بعيدًا عن الأفرشة الوثيرة.. وبعيدًا عن الأنفاس التي تضفي الدفء.. من فوق الفِراش انزلقتْ.. وقفتْ مبهورة الأنفاس تسمع دقات قلبها.. فزعت لسماعها.. نظرت إلى زوجها ثم إلى صغيرها.. كلاهما نائمان.. يأكلان أرزًا.. أو يشربان عسلًا.. ما أطيب طعم الأرز! وما أحلى مذاق العسل! في خوف، ابتسمت.. خطت إلى وسط الحجرة.. وقفت.. واصلت خطوها نحو الباب.. من الفِراش صدرت حركة.. زوجها يتقلب.. دب قلبها.. وقفت .. رجعت ناحية الفِراش.. في وجه زوجها حملقت.. قلبها يخفق ويخفق.. خافت أن تقلق الخفقات زوجها.. ابتعدت.. تعثرت قدمها في حذائها، فأصدرت جلبة أثلجت قلبها.. انحنت تطل في وجه زوجها.. ما زالت تطل مكان عينيه.. التقطت الحذاء.. تحت إبطها دسَّته .. في وجل، عادت ناحية الباب.. دقات قلبها تملأ أذنيها وتملأ البيت.. بل تملأ الدنيا .. وضعت راحتها على صدرها.. خرجت من الحجرة.. البرد يلفح ما عري من صدرها.. لا تشعر بالبرد.. فقط، الخوف يتغلغل في حناياها.. في الظلام واصلت خطوها.. أصابعها تستصرخ الأرض ألَّا تثير صخبها.. ببطء شديد.. بلمسة من أصابعها وعضة على ناجذيها، وانحناءة خفيفة، فتحت الباب الخارجي.. ناحية الحجرة ألقت نظرة بعينيها.. بأذنيها.. بكل جوارحها.. اتسعت ابتسامتها الخائفة.. ودَّعت المنزل.. الصقيع يلفح وجهها وصدرها.. لمت فتحة جلبابها، وانكمشت على نفسها.. فوق المنازل.. السماء بنجومها الحزينة لغياب القمر:

- ليتني ألقاه!

كان قد سبقها إلى مكان اللقاء في الأيام الخالية.. تاركًا زوجته تغط في نومها.. لم يطأ الكرى جفنيه منذ أن حط رأسه على الوسادة.. ظلت عيناه مفتوحتين خيفة أن تأخذه سِنة من النوم.. اقتربت الساعة من الواحدة.. أضاءت الفرحة جبينه .. شعر بدنو الأمل.. انقضت الساعات الثقيلة.. نفض الفراش بينما شفتاه تنفرجان عن ابتسامة ساخرة.. ماجنة.. نظر إلى زوجته النائمة.. المستسلمة.. تخيل أنها صحت، فاتسعت ابتسامته وهز رأسه:

- إنها نائمة في الخمر.. ما ألذ الخمر للنائمين!

في المكان نفسه، انتظر في قلق.. تذكر ماضيه.. سرت النشوة سريان دمائه.. لا يشعر بالرياح الهائجة.. الطبيعة ترسل أصواتًا ثائرة.. مزمجرة.. أخالها فرحة بوجوده.. وكأنما تحييه وتغبطه.. وقد خرست أصوات الأحياء إجلالًا.. ليس إلا هو الآدمي الوحيد يؤنس وحشة المكان ويمحي كآبته.

عادت تحدث نفسها:

- لا ريب أنه ينتظرني.. وأنه متلهف على رؤيتي.. مسكين يتعذب.. مثلي يفترش الأشواك.. ويحنُّ منذ سنين إلى هذا اللقاء.. كم أتوق إلى لقائه.. فيحكي عن عذابه ووحدته بعيدًا عني.. كم.. كم أشتاق لسماع صوته.

جعلتْ تعدو بين أشباح الأشياء كأرنب ضالٍّ.. تتلفت حولها مذعورة.. ضربات قدميها طبول تجلجل.. وجيب قلبها يوقظ النيام.. استوقفتها كلمات زوجها:

- عودي إلى حاضرك.. فالماضي لن يكون..

كيف تعود وحبيبها على قيد خطوات؟! شعر بدنوها.. بلى، فإنه يحفظ وقع أقدامها.. بل يميز رائحتها.. فتح طاقتي أنفه ليتنسم رائحة الماضي المحببة.. تذكر زوجته.. كم تزكم رائحتها أنفه.. بالأمس كانت تداعبه.. كم كانت تزعجه.. وها هي حبيبة الماضي.. طفرت من عينيه دمعة فرحة.. الأمل يفتح ذراعيه ليضمه في شوق.. وتهيأ كما يتهيأ العروس!

- سأمتص رحيقها.. لن أدع لزوجها قطرة واحدة.. بالأمس، كانت تتمنع وتهرب في رقة.. وتَعِد بخضوعها بعد الزواج.. وها نحن بعد الزواج.. وكيف.. كيف تلوذ بالفرار؟

الظلام من حوله.. جميل في عينيه.. اندفعت تعانقه.. يبكي وتبكي.. شتان بين دموعه ودموعها.. استمر دقائق.. سمعت الرياح تصخب وتهدر.. أفلتت منه.. سار بين النخيل الشاهقة.. قال منتشيًا:

- أحقًّا جئت؟!

تراقصت ابتسامتها الخائفة ولم تجب.. بل سمع أنفاسها ترد كأنما تأتي من أعماق بئر عميقة..

- إنني في حلم..

- بل إنها الحقيقة..

جلسا يتهامسان ويتناجيان.. لمس يدها.. أمسكها فسرتْ إليه الحرارةُ.. مرقت منه برقة.. تذكر الماضي..

تذكر وعودها.. تشبث بيدها.. نهضت حين سمعت صوت حركة.. وقف في مقابلتها.. تذكرت زوجها.. منذ يومين، انهال عليها ضربًا.. اتهمها بأنها تهذي في نومها بكلام يستحي أن يعيده.. أخفتْ وجهَها في صدره.. شدّه هذا المشهد.. تمنى لو يطول.. سمعت صوتًا آخر.. نظرت إليه فزعة.. لم يشعر بفزعها.. خطت بعيدًا عنه.. لحق بها.. قبض على يدها.. صوت الرياح يدوي من جديد.. تآبطا.. أحست بجسد غريب عنها.. ليس كزوجها.. أزاحته بعيدًا..

في الحقيقة، ضمها إلى صدره.. عبثت قدمها بأوراق الشجر الجافة.. خشخشت.. دوت طلقة نارية.. اخترقت السور المجاور.. انكفأت تخفي رأسها بين الأوراق الذابلة الساقطة.. كان الخفير يتلمس فرصة طيلة الوقت.. اقتربت يده.. لمست أصابعه فخذها.. قبض عليه.. تألمت.. قذفت بقدمها وجهه.. تشبثت يده.. ثنت رجلها.. ومرة أخرى، دفعت وجهه فتركت فخذَها يدُه.. توالت الأعيرة النارية.. لا بد أن هذه الأعيرة أيقظت زوجها.. ولعله يبحث عنها بجانبه.. وفي كل الغُرف.. اكتشف خروجها المريب.. تخيلتْ أن الخفير انقضّ عليها.. تطلعت ناحية سور الحديقة السجن.. هتف بكلمات متكسرة:

- لنقفز من فوق السور.. ولنسرع إلى مكان أكثر أمنًا..

وجهت إليه نظرة نارية.. لم تعد بندقية الخفير تخرج بارودها الحارق.. لعله ينتظر نتيجة طلقاته وعما أسفرت.. أو أنه يستعد لمحاولة أخرى.. بحسها سمعت أقدام الخفير تقترب.. فوق السور ستصبح فريسة سهلة لأعيرته.. لن يدعها تفلت.. ستُقتل لا ريب.. وقتْلها في هذا المكان والزمان فضيحة لها ولزوجها ولأهلها.. ولطفلها حين يشب.. سبحت في بحر خيالها.. أخالت نفسها وسط أهل القرية.. والكل يشير إليها في سخرية وشماتة.. زوجها بينهم.. في عينيه ذهول.. يخفي وجهه بين لحظة وأخرى.. لعله يبكي.. والنساء.. النساء يتشدقن بما يمزقها!

- ليتني ما أتيت.. لعنة الله على الماضي..

طفلها - أيضًا - يبكي وسط ذلك الجمع الهائل.. لا أحد يسمعه أو ينتبه إليه.. الجميع لا يهتمون إلا بها.. وفي شماتة يضحكون..

يد الشيطان تمتد إلى نهدها.. الخفير يدنو بحذر خطوة بعد أخرى.. بعد قليل سيمسك تلابيبها.. لمحت ابتسامته العربيدة وإصراره.. وضحكاته البلهاء الصامتة.. اختلطت الضحكات ببكاء طفلها ونحيب زوجها.. الأصابع خناجر تفقأ عينيها.. النظرات سهام تفتك بكرامتها.. زوجها يخفي وجهه حتى لا يراها.. والدها

يقوم من قبره والشرر يتطاير من محجريه.. الفضيحة هائلة هائلة!.. رمقت السور بنظرة خاطفة، وما لبثت أن قفزت كالهِرِّ.. أصبحت في لحظة خلف السور.. في الأمان.. لم يشعر بها الخفير أو يلمحها.. والدليل أنها ما زالت حيَّة .. أحست به يقفز من خلفها.. أصبح فوق السور.. طلقة نارية أخرى.. مكتومة.. أين استقرت؟!.. أين خبت؟.. جعلت تتلفت حولها.. ارتمى جسده بالقرب منها.. ما زالت يداه تبحثان عنها.. تقلصت عضلات يديه ورجليه ووجهه.. عيناه بارزتان ترسل لهيبًا مخيفًا.. وما لبث أن أرسل حشرجة غريبة، وسرعان ما ارتمت يداه وانطفأت الحياة من عينيه.. رأت الدماء من حوله.. والخفير.. أين الخفير؟ .. بكاء طفلها يختلط بحشرجات الموت.. قامت من سقطتها.. خطت.. انكفأت.. قامت ثانية.. انطلقت تسابق الريح، والطلقات تمرق من جانبها.. مرت بمكان اللقاء.. التفتت إليه في ذعر.. وقفت أمام باب المنزل.. ما زال مفتوحًا.. يستحثها بالعودة إلى الحاضر.. تطلعت إلى صفحة السماء.. اقترب الفجر.. مسحت من على خديها عَبرتين.. سمعت بكاء طفلها.. نسيت ما كان.. وهرولت إلى الداخل.. الحاضر.. ولم تعد تهذي أثناء نومها.

* * *